شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٣)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

أما بعد:

قال رحمه الله:

(ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة، وبكل ما أخبر الله سبحانه من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هنالك في ذلك اليوم الهائل، من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل، والإجابة عن المسائل، إلى سائر الزلازل والبلابل الموعودة في ذلك اليوم العظيم، والمقام الهائل من الصراط والميزان، ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير والشر وغيرها) هذه القطعة تتعلق بالإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، فإن الله سبحانه وتعالى كثيرًا ما يقرنه بالإيمان به، كما قال الله عز وجل: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل لما سأله عن الإيمان: ((قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

فاليوم الآخر ثابت بالكتاب وبالسنة وبالعقل وبالإجماع وبالفطرة، أما ثبوته في الكتاب ففي مواضع عدة بشتى أنواع الدلالات، منها التقرير المباشر، كما تقدم، ومنها إنكار الله عز وجل ونعيه على منكري البعث، كقول الله

هذه المادة لم تراجع على الشيخ .حفظه الله .

سبحانه وتعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ}، وحكى الله عز وجل عن رجل من المشركين أنه أتى بعظم ففته ثم قال أتزعم يا محمد أن الله يحي هذا بعد أن صار رميمًا، فقال الله سبحانه: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}، وقال سبحانه: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}، فالقرآن العظيم مليء بتقرير الميعاد بشتى أنواع التقريرات، وكذا السنة النبوية، كما في حديث جبريل المشهور وغيره، وقد أجمعت الأمة على إثبات اليوم الآخر والبعث بعد الموت، كما أن العقل أيضًا يدل على ذلك، فإن كل متأمل في حكمة خلق الله وصنعه وتدبيره؛ يعلم يقينًا أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يدع الخليقة دون معاد، ذلك أن الظالم يموت ظالمًا، والمظلوم يموت مظلومًا، فكان لابد أن يرد الله الحق إلى نصابه، فلو كانت الأمور تنتهي بالموت لما كان خلق السماوات والأرض بالحق، ولما خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض بالحق علمنا أنه لابد لهذه الدنيا لشيء يرد الحق إلى نصابه، يرد للمظلوم مظلمته، ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فهذا وجه دلالة العقل.

أيضًا الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، تقر وتصدق بهذا الأمر ولا تجد غضاضة فيه، فجميع هذه الأنواع من الأدلة توافرت ولله الحمد على تقرير البعث بعد الموت، لذا قال الشيخ:

(**ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت**) والإيمان باليوم الآخر، قد جعل له شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ضابطًا في العقيدة ((الواسطية)) فقال: (وهو الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت)، فلذلك يدخل فيه أمور:

الأمر الأول: فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمة.

الأمر الثاني: البعث، وهو خروج الناس من قبورهم أحياء حفاة عراة غرلًا.

الأمر الثالث: محاسبة الله للخلائق.

الأمر الرابع: الجنة والنار.

فكل هذه الأمور الأربعة، مقومات الإيمان باليوم الآخر، ولها تضاعيف وتفاصيل كثيرة، يشير الشيخ إلى شيء منها، فنص الشيخ على البعث، فالبعث كما قال ربنا عز وجل: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.

وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنه أول من يفيق صلى الله عليه وسلم، وحينئذ يتجه الناس خلف الداعي إلى أرض المحشر، قال ربنا عز وجل: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، وهذا معنى قول الشيخ:

(**واختلاف أحوال العباد فيه والخلق**) فإن الله يحيل هذه الأرض إلى صورة غير التي نعهدها، فتعود الأرض كالخبزة، ليس فيها معلمًا لأحد، قال ربنا عز وجل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا}، فالناس جميعًا ضاحون، لا أحد يكتن بشيء ولا يستتر بشيء ولا يرقى على معلم ولا يهبط في واد، بل الأرض قطعة واحدة مستوية، ليس فيها معلم لأحد، كما قال ربنا تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال الناس على هذه الصفة، كما في حديث عائشة: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا))، وفي بعض الأحاديث: ((بُهما))، حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين، يعني أن الله سبحانه وتعالى يعيدهم بكامل خلقتهم التي كانوا عليها، حتى القلفة التي تكون على رأس الذكر وتزال من الصبي بالختان تعاد، كما بدأنا أول خلق نعيده، وورد في بعض الأحاديث ((بُهما)) ومعنى بهما: أي ليس معهم شيء، فهذه هي صفتهم، حتى أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: واسوأتاه يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، وتأملوا هذا الحياء الفطري لدى المرأة المؤمنة، فإنها لما سمعت بهذا الحديث، أول ما وقع في قلبها وسبق إلى وهلها الحياء والعفة والحشمة، بخلاف هؤلاء المنكوسين ممن والعياذ بالله فسدت أمزجتهم وضمائرهم من أهل العري والفحش والسوء الذين لا يبالون بالعورات ولا يستحون من الله ولا من الناس، فهذه أم المؤمنين لما سمعت بهذا الأمر، وفي سياق يحمل صاحبه على الخوف من ذلك المقام تبادر إلى ذهنها ما يتبادر إلى ذهن المرأة المؤمنة الشريفة العفيفة،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ. حفظه الله.

فقالت: يا رسول الله واسوأتاه! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: ((يا عائشة الأمر أكبر من ذلك)) يعني أكبر من أن ينظر بعضهم إلى بعض.

فهذا البعث يحشر جميع الناس من لدن آدم عليه السلام إلى آخر من يصعق على وجه الأرض يحشرون {يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ}، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأطوالهم، يعني من كان في قرن آدم عليه السلام، ستون ذراعًا في السماء، ومنهم من هو على خلقتنا الآن، ومنهم من يكون ربما دون ذلك، وتحشر معهم الداوب والعشار وغير ذلك مما ذكر الله عز وجل في مشهد عظيم كما أشار الشيخ:

(من أهوال ذلك اليوم الحق، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هنالك في ذلك اليوم الهائل) ثم ذكر الشيخ أمثلة لما يجري في ذلك اليوم، وهو مما يجب الإيمان به، قال:

(من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل) وهذا يرد في كتاب الله في مواضع، قال الله عز وجل: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ (19) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}، وقال في موضع آخر: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا}، ولا تنافي بين الآيتين من أن من سبق له من الله السوءا يؤتى كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، فإنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، فلا تعارض بين الآيتين، فهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله:

(من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل) وهذه الكتب هي دواوين الأعمال، كما سيأتي قريبًا.

قال: **(والإجابة عن المسائل)** ذلك أنه في ذلك اليوم يسائل الناس ويسائل الكفار من جنس قول الله تعالى: {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}، ومن جنس قول الله تعالى: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، وكذلك كسؤال {كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ} فثم أسئلة عظيمة كثيرة في ذلك اليوم.

قال: (**والإجابة عن المسائل إلى سائر الزلازل والبلابل**) والبلابل هو ما يبلبل الذهن ويشوش العقل بسبب الهم والغم.

(**الموعودة في ذلك اليوم العظيم، والمقام الهائل من الصراط والميزان، ونشر الصحف**) فعاد الشيخ إلى ذكر بعض ما يجري يوم القيامة، فذكر الصراط، والصراط: هو الجسر المنصوب على متن جهنم، يعبره من ليس بكافر، ذلكم أن الكفار والعياذ بالله، لا يعبرون على الصراط وإنما يقذفون في جهنم، وأما من كان غير ذلك، فإنهم يأمرون بالعبور على الصراط، قال ربنا عز وجل: {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}، وهذا الموقف، أجارنا الله وإياكم، ونجانا وإياكم من أعصب وأصعب مواقف يوم القيامة، حتى أن أولى العزم من الرسل دعائهم في ذلك المقام: ((اللهم سلم سلم))، فيأمر الناس بالعبور على هذا الصراط، وهو صراط حسي حقيقي، حتى ورد في الأحاديث: ((أنه أحد من السيف وأدق من الشعر، وأحر من الجمر، وأنه مدحضة مزلة مزلقة))، فيمر الناس فيه على قدر أعمالهم، فيكون مرورهم على هذا الصراط الحسي، على قدر سيرهم على الصراط المعنوي في الحياة الدنيا، فإن الصراط المعنوي في الصراط الدنيا، هو الصراط المستقيم الذي يدعوا العبد ربه في كل ركعة من ركعات الصلاة أن يهديه إليه {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ}، والمقصود به امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فمن كان مستقيمًا على الصراط المعنوي؛ استقام على الصراط الحسي، ومن كان مسارعًا في الصراط المعنوي؛ كان مسارعًا يوم القيامة على الصراط الحسي، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مراتب الناس وأحوالهم في عبورهم على الصراط فقال: ((فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كشعشعة البرق، ومنهم من يمر كالخيل الجواد، ومنهم من يمر كركاب الأبل، ومنهم من يعدو عدوا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا)) يعني يمشي على مقعدته، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((فمخدوش ناج، ومكردس في النار))، فمن الناس من يخدش وينجو، ومنهم من يكردس في النار، ذلكم أنه على جنبتي الصراط كلاليب، جمع كلوب، كأشواك السعدان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تخطف أهل الكبائر))، من شاء الله عز وجل أن يعذبه في النار، فتلقيه فيها، أما أهل النار الذين هم أهل فقد قذفوا فيها والعياذ بالله {وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}، فهذا هو الصراط.

وأما الميزان: فهو أيضًا ميزان حقيقي، له لسان وكفتان، وليس المراد بالميزان كما زعمت المعتزلة، أنه إقامة العدل، بل هو ميزان حقيقي، على كيفية لا نتصورها الآن، لكن له كفتان وله ميزان، كما دلت على ذلك النصوص.

وما الذي يوزن هل الذي يوزن العمل، أم العامل، أم الصحف، ثلاثة أقول لأهل العلم، ولقل قول دليل: فمن قال أن الذي يوزن هو العامل، استدل بحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، لما تعلق يصلح شيئًا في المسجد بدت ساقاه فتعجب الصحابة رضوان الله عليهم من دقة ساقيه – لأنه كان ضئيل الجسم، لكن لمن يضره ذلك، فإنه كنيف ملء علمًا رضي الله عنه – فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أتعجبون من دقة ساقيه، والله لهما في ميزان الله أثقل من جبل أحد)) رضي الله عنه فهذا دليل على أن الذي يوزن هو العامل.

وأيضًا مما يدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الكبير الضخم من المنافقين أنه: ((لا يزن عند الله جناح بعوضة)).

الدليل على أن الذي يوزن الصحف: دليله حديث البطاقة: ((أنه يدعى برجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، من الذنوب والخطايا فيظن أنه قد هلك، فيقال: إنك لا تظلم، فيخرج له بطاقة مكتوب فيها لا إله إلا الله، فيقول: ما عسى أن تصنع هذه البطاقة بجنب تلك السجلات؟)) قال صلى الله عليه وسلم: ((فثقلت البطاقة وطاشت السجلات)).

فهذا دليل على أن حسنة التوحيد حسنة عظيمة جدًّا لمن حققها، وهذا دليل على أن الذي يوزن هو الصحف.

وأما الدليل على أن الذي يوزن هو الأعمال فقول الله عز وجل: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، وقوله سبحانه: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}.

قال الشيخ: (**ونشر الصحف**) الصحف: المقصود بها دواوين الأعمال التي يسجل فيها على العبد ما يعمل من خير وشر.

فنحن منذ أن بلغنا الحنث، منذ أن بلغنا سن التكليف، والقلم يجري علينا، تأمل أنت ما تكتبه من درس علم في ليلة واحدة صفحة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع، بقدر نشاطك في الكتابة، تأمل ما يكتب عليك منذ أن بلغت سن التكليف إلى أن تموت، يكتب ما لا يحصيه إلا الله، يكتب كل شيء، هذا المكتوب، يوم القيامة ينشر، قال ربنا عز وجل: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، معنى طائره في عنقه إي ما طار من عمله، من خير وشر، فهو ملزم به لا انفكاك له عنه، ويوم القيامة يطلع عليه، فلا يستطيع إنكار شيء منه، فهذا هو المقصود بنشر الدواوين أو نشر الصحف، ومعلم ومظهر لإقامة الحجة، فإن الله سبحانه وتعالى حكم عدل مقسط، وكل إنسان يعذر من نفسه يوم القيامة حتى أن الله سبحانه وتعالى ربما ختم على الفم واللسان وأنطق الفخذ واليد وسائر الجوارح، فشهدت على صاحبها، كما أخبر الله عز وجل: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، حتى أنه إذا خلي بين العبد وبين الكلام، قال لجوارحه: ((بعدًا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل))، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم ضحك لما حدث بهذا الحديث.

قال: (**ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير والشر**) حتى إن الكفار يتعجبون {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، سبحانه وتعالى.

ثمّ أمور أخرى تقع في هذا اليوم كدنو الشمس من العباد قدر ميل أو ميلين، وإلجام الناس بالعرق، وغير ذلك من الأقوال التي يطول ذكرها، وهي مبثوثة في كتاب الله تعالى، وفي صحيح السنة، وممن اعتنى بهذا الإمام القرطبي في كتابه ((التذكرة، في أحوال البرزخ والآخرة))، وغيره من الأئمة ممن كتب في اليوم الآخر.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.